



يدخل الاب باب الغرفة على أولاده الثلاثة وزوجته وهم مكومون على بعضهم البعض من شدة البرد وتحمل عيناه خيرا سارا لهم وكأنهم ينتظرون عودته من السفر فيبدأ بالقول " ها قد عقدنا أنا والمهرب الصفقة واتفقنا على المبلغ المطلوب لينقلنا غدا في الليل الى شواطئ الأراضي الايطالية لطالما أردنا ذلك"

يرد منذر وهو الأبن الأكبر ويبلغ من العمر ١٩ عاما بشكل سريع "ومن قال لك أننا أردنا ذلك ، أنا لا أجد السباحة وانت لم تعلمني اياها في صغري ولا أريد الموت بهذه السذاجة ، ما بها العيشة هنا أليست أجمل من رحلتك المرعبة"

الاب : "أنت لا تنتظر أبعد من أنفك يا ولد ، أنظر الى الراحة التي سنشعر بها بعد هذه المعاناة وكيف سيتحول حالنا، سيحتضننا الأجانب مرحبين بنا وكأنهم ينتظرون زيارتنا منذ زمن طويل"

الابن : " لقد نسيت جملتك المشهورة وأنهم يوزعون على اللاجئين ألوان رسم لكي يرسموا أحلامهم ويعيدوا تلوينها ، لم أقتنع فأنا لا أحب الرسم ...أفضل البقاء هنا وأن أكمل دراسة الثانوية العامة خير لي من هكذا مجازفة غير معروفة النهاية"

الأب "هناك يعيش الإنسان على أنه أنسان هذا ما قاله كل من ذهب إلى البلدان الأوروبية ، لم يتبق لنا هنا خبزا لنأكله ، ولم أقطع هذه المسافة بين لبنان ومصر حتى أبقى هنا ، عندما نصل أرض الأمان ستكمل دراستك هناك لا تقلق من هذه الناحية لديهم التدريس ممتاز ، أظن أن مستقبلك هناك سيكون باهرا بقدر طول لسانك يا ولد"

الابن: "أتريدني أن أدرس تاريخهم؟ ماذا عن تاريخهم؟ ألم يتعرضوا لحروب طاحنة؟ لكن لم يغادروا بلادهم ولم يهاجروها مثلما نفعل نحن اليوم أنما بقوا فيها وأعادوا بناءها ، ألا يعبر ذلك عن حبهم لأوطانهم، ماذا سيكون موقعي عندما يسألني أحد الأوروبيين عن ذلك؟"

الأب: "لا تخاف لن تُسأل هذا السؤال عندما يُعرف أن أذاك استشهد بإحدى رصاصات الغدر عندما كان يلعب و أن البراميل المتفجرة المتساقطة على رؤوسنا لم تدع شبراً واحداً للعيش و القذائف المتطايرة و دخانها لم يترك سماءً إلا غطاها "

الابن : " كم أتمنى ألا يتكرر ذلك ، و لكن أتريد أن تأخذنا من الموت إلى الموت "

الأب : " كل ما يهمني الآن أن تكونوا سعداء أنت و إخوتك ومرتاحي البال بعيدا عن شلالات الدماء ، بالرغم من خطورة الأمر سنذهب إلى أوربا غدا ونتوكل على الله "

بالرغم من هذا النقاش الجاد الذي دار بين الاب وابنه فما كان باستطاعته إلا الانصياع لأوامر أبيه والموافقة على طلبه بخوض هذه الرحلة المحفوفة بالمخاطر.

وفي اليوم التالي اتصل الأب بالمهرب ليطمئن على حال رحلتهم و إن كانت قد طرأت أية تغييرات ومستجدات يجب أتباعها فأخبره المهرب المتعجرف أن عليهم الذهاب الى مكان شبيه بالمدرسة والمكوث هناك حتى يحين وقت الرحلة وانتظار الأوامر.

الوقت ما قبل الغروب ، وأشعة الشمس المائلة تخترق نوافذ الغرفة كما اخترق الخوف قلوب أفراد العائلة ، حتى وإن كان الإبنان الاصغران ذو التاسعة والعاشرة لم يدركا ما يجري إلا أنهم شعروا بشيء جديد يحدث لأول مرة ، كان الخوف يلمع في عينيها بدون أسباب تذكر.

في وسط الغرفة التمت العائلة وقد جمعت ذكرياتها المعجونة بالحرب و بقايا الصور الملطخة بالدماء على خلاف ما قد يجمعه السائحون في أوربا استعدادا للرحيل وتنفيذا للقرار الأخير ، بانتظار السيارة التي ستقلهم الى نقطة التجمع ، في جو يسوده التوتر و الجزع المرسوم على وجوه أفراد العائلة ، نظر الأب الى زوجته وأبناءه و يركز على منذر ويطمئنهم بالقول " لا تقلقوا سيكون كل شيء على ما يرام أن شاء الله."

ركبت العائلة السيارة لحوالي النصف ساعة وصلوا بعدها الى المكان المطلوب ،لم تكن الوحيديين هناك بل أن عشرات العائلات تكدسوا ليزاحموننا في رحلة الموت ، الحماس لحياة جديدة و الخوف من نهاية مجهولة مشاعر اختلطت في آن واحد في قلوب الأيامي، هم رفقاء الهم والحرب والمصير الأخير ، لا احد سواهم باستغراب ودهشة قال منذر " كل هؤلاء يحبون الرسم و يريدون تلوين أحلامهم مثلنا تماما"

يجيب الأب بابتسامة عفوية " اتمنى ان لا تنفذ الألوان من عند الاوربيين لأننا في بلادنا لم نلون سوى بالأسود والاحمر. يزداد توافد العائلات المهاجرة التي لم تجد سبيلاً للرجعة عن قرارها في مواجهة الموت وكانهم جيش يستعد لملاقاة عدو في غاية الشراسة لم يستطع أحد من قبل التغلب عليه.

تنخرط عائلة أبو منذر بالعائلات الاخرى وتتبادل العائلات اطراف الحديث والجميع في حالة انتظار لأوامر المهرب المتعطرس ،

حتى أصبحت الساعة العاشرة تقريبا فأنت الحافلات لتتنقل عشرات العائلات الى منطقة خاوية على طرف البحر، كان

مشهد البحر مطمئن للوهلة الأولى لم يبد اي عداء ولم يرحب بالضيوف بل التزم الهدوء والصمت كان الليل ساكناً والقمر بازغا .

عند الوصول الى الشاطئ ، كان بانتظار العوائل أشخاص تظهر على وجوههم علامات القسوة وملامح غير مطمئنة يبدوا أنهم مساعدا المهرب الكبير صاحب الكنز الكبير طلبوا من العوائل الركوب في قارب صغير ، على دفعات ، لينقلهم الى قارب تجاري أكبر يتسع للجميع على بعد أميال من الشاطئ وهكذا حتى يكتمل العدد الذي يصل الى ٣٠٠ شخص تقريبا .

في وقتها كان كل شيء على ما يرام وبدأ يشعر المهاجرون بالارتياح لدى وصولهم الى القارب التجاري الذي كان ينتظرهم في عرض البحر بالرغم من المكان غير المريح الذي وضعوا فيه في الطابق السفلي للقارب حيث المياه على الارضية والتي لا تليق لوضع البضائع ..... هناك تكدس الناس فوق بعضهم البعض ليبدأ القارب بالإبحار بشكل طبيعي.....

بالرغم من الهدوء الذي يخيم على مجالس اللاجئين في القارب لكن أفئدة ضيوف القارب ما زالت تنبض بالخوف الخجول من المجهول ، لن يشعروا بالارتياح حتى يفى القارب بالعهد بأن يبقئهم أمنين غير مرعوبين وبدوره سيطلب القارب الرحمة من لطمات الأمواج المضطربة.

سلم أغلبية المهاجرين أنفسهم للنوم في أحضان القارب المهترئ ، ناموا على أنغام الأمواج البريئة على غير نغمات القصف المتقطع هذه المرة ، بشكل مختلف حصل الجميع على نيمة الأمواج المجنونة ، لا نجد في أرضية المركب الا صوت همسات بعض الذين لم يناموا بعد أما بسبب قلقهم الزائد وعدم التسليم بأنفسهم لغدر القوارب أو أن لديهم رصيد من النوم كرصيد الخوف.

هناك على أحد جدران القارب يسند أبو منذر وابنه ظهريهما ، وقد أتعبهما الحديث الطويل عن الذكريات الجميلة والمستقبل المنتظر وتدور بينهم الأسئلة وتتكسر عن أسئلة مجابة وغير مجابة ليشغلا فراغ الوقت و يسمعا جدران القارب أوجاعهم ليتعاطف القارب مع أصواتهم الحزينة على ايقاع الالم ولا يخسف أحلامهم.

التف الأب الى منذر وهو يبتسم بعد أن أشعل سيجارة خرج منها دخان اخترق ذاكرته المليئة بدخان المعارك والنيران؛ فقال : " اتذكر جيدا عندما جئت الى البيت ذلك اليوم شاحب الوجه وتحمد الله على أنك نجوت من رصاصة القناص الأحول الذي لم يستطع إصابتك"

يضحك الابن على ذكرياته البائسة متسائلا : "أتذكر أيضا جارنا أبا خالد عندما أصابته شظية القذيفة الطائشة ودخلت أعلى فخذه واستوطنت جسده وبقي واقفا كعمود الكهرباء لا يستطيع الجلوس حيث كانوا يقدمون له الطعام فيأكل وهو واقف وبنام وهو واقف وعندما هممنا لزيارته لم يرض الجلوس فأحسنا حينها بالسخرية من الموقف المخرج"

استمر الأب بتفجير حنينه للذكريات فتطايرت وتبعثرت كما تتبعثر الشظايا الملتهبة ،فيرد بذكرى جديدة تتحدى أجواء النيران حيث قال " يا لها من لحظات جميلة وأيام قاسية عشناها بتفاصيلها الحزينة ، ذكرى ممتعة تلك التي أمضيهاها نجلس مع جيران حارتنا وندخن الأراجيل تحت ألحان القصف ووقع التفجيرات وكأن شيئا لم يكن، متناسين كل معالم الحرب القبيحة ، كم كنا نفجر في أفواهنا كلمات الحق ليخرج منها دخان النارجيلة"

منذر مبتسم تارة و ومتحسر تارة أخرى وقد استيقظت الذكريات في مخيلته وسكنت بجوار الحنين وتشبثت في ذاكرته الحية فيشعل توأمها عند أبيه فقال " هذه الذكريات لن أنساها ما دمت على قيد الحياة سوف تبقى تنبض ألما وحباً ، خصوصا اليوم الأول ونحن نستقبل الحرب ، شعرت حينها أنني بفيلم أكشن وقد أخذت دورا لم أكتشفه بعد ، كانت تلك المرة الأولى التي عشت فيها أجواء غير اعتيادية ، الطائرات من فوقنا ترقص والدبابات تعزف لحن الموت، والناس تحاول الهروب من هذه الحفلة الصاخبة "

هكذا داهمت الذكريات الأب وابنه بهدوء خيم في أرجاء المكان حتى سيطر النوم على منذر ،وذلك بعد ساعات من الرحلة ،أخذ أبو منذر يجتاز النيام على أرضية القارب ليصل إلى الباب المؤدي إلى السطح يصعد الدرجات ببطء وحذر لكي لا يزعج أحد تماما كالسارق الذي سلب منهم أحلامهم وأراد الهروب ، كان الجو بالأعلى ضبابيا حتى ان الأفق لا تكاد ترى ، كان نسيم عليل يهب آنذاك عندما قام أبو منذر بعمل جولة على سطح القارب متفقدا سير الرحلة . توجه الأب بخطى هادئة إلى حجرة القيادة ليستفسر عن حالة هذا الضباب المخيف ،كان هناك شخصين متواجدين في المكان وقد بدت عليهما خشونة وفظاظة في التعامل لامثيل لها ، أحدهما القبطان والآخر مهرب مسؤول عن الرحلة، أما المهرب ظهر عليه علامات السكر و رائحة الخمر التي فاحت في الحجرة ومازجت رائحة البحر ،ولكن القبطان القلق تبدو عليه الحيرة المطلقة لما يحدث من ضباب كثيف أغلق أمامه الرؤية فبات يسير على غير هدى كما قال "نحن نبحر ولا نعرف إلى أين نبحر فذلك أشبه برجل معصوب العينين في وسط الصحراء "

لم يكثرث المهرب لأمر المشكلة ولم يرف له جفن ، على عكس أبو منذر الذي بدأ يتابع الأمور مع القبطان بحذر وانتباه شديدين

ثم رد متسانلا "وكيف ستسير رحلتنا أذن"

بحالة من الاضطراب والتوتر يرد القبطان وهو يجعر "خطر ،توتر، والله لم أشهد توترا مثل هذا في حياتي الملاحية " من خلال الضباب نفذ صوت جرس حزين واستطاع الملاح أن يدير عجلة القيادة بسرعة عظيمة ، ثم اختفى الصوت المبحوح ، ومن وقت لأخر كانت أصوات الصافرات تخترق الضباب وتقرع الأذان بشدة.

قال الأب للقبطان مشيرا الى جهة الصوت " أتسمع أنه قارب كبير من نوع ما هناك؟ ،أنها صافرة تنفخ بالفم على الأغلب"

كانت العبارة تطلق صفرة بعد أخرى تحت أهداب الضباب وكان القارب الوحشي مطفى الأنوار لكي لا يحطم مصيره أحد ومصير ركابه النائمين"

قال القبطان ذو العينان الخائفتان والوجه المتوهج وذلك عندما خف نفخ الصافرات مفسرا أصوات الصافرات " أنها عبارة كبيرة على الجانب الأيسر منا، والحمد لله أنها ابتعدت"

هكذا هو غموض البحر ورومنسية الضباب ترهق أعصاب البحارة والركاب وتقتل إرادتهم الصلبة، بعد ثواني معدودة ، حتى أعيدت الكرة مرة أخرى فقال الأب" أحدهم يشق الطريق نحونا، هل تسمعه؟، أنه قادم ومتجه إلينا بسرعة مباشرة ، لا أظنه يرانا"

في تلك الأثناء انتشرت حالة هلع كبير في حجرة القيادة وصوت صافرة تزعق بشدة أيقظت الخوف في القلوب فسأل الأب "عبارة"

فهز القبطان برأسه إيجاباً ثم قال يبدو أن قبطانها عاجز عن السيطرة عليها ، أنظر كيف يدفع رأسه وكتفيه من قمرة القيادة ويحدق باهتمام شديد في الضباب"

ثم وقعت الواقعة ، جاءت العبارة بسرعة لا تصدق ، من جهة اليسار لخط سير القارب وبدأ أن الضباب انفرج وظهر قوس العبارة وتجر معها كومات الضباب "

كان الهدوء في تلك الظروف مخيفاً ، فصاح القبطان بغضب " تمسك بشيء وتعلق به "

واصطدمت العبارة بالقارب قبل أن يستطيع الأب تنفيذ النصيحة

لا بد أن الارتطام كان في صفحة عرض القارب لذا استدار الى الخلف بحدة، ثم كان هناك ارتطام وصرير فالحشب تمزق بعنف ، وبدأ بعدها الماء بالتسرب إلى الطابق السفلي للمركب . لقد ألقى التصادم بالأب على وجهه ، وقبل أن يستطيع النهوض على قدميه سمع صراخ النساء ، وبدأ الجميع بالهرولة الى السطح رجالاً ونساء ، تذكر الأب سترات النجاة المخزونة في الكابينة ، عندها انهال عليه سيل من النساء والرجال بشكل فوضوي عنيف ، يريدون النجاة بأرواحهم ، بدأ أبو منذر بسحبها وتوزيعها حتى أن عائلته حصلت على سترات ، الكارثة أنه لم يتبق لديه سترات تكفي بعض الرجال وهو واحد منهم حيث كان التوزيع للنساء والأطفال أولاً.

ماهي إلا دقائق حتى أدرك الجميع أن المركب أخذ بالغرق ، منهم من بدأ بألقاء نفسه ومنهم مازال يتمسك بحواف وجدران القارب حتى يلتقط أنفاسه الأخيرة وتغمره المياه .

لم يكن شيئاً مقلقا أكثر من البرد القارس في الماء ، والرياح القوية و الامواج الغاضبة التي بعثرت الجثث في عرض البحر ،بقي من ركاب السفينة خمسون رجلاً اصغرهم منذر ، شكلوا حلقات مترابطة خشية الغرق و ليكونوا بجانب بعضهم البعض في اللحظات الاخيرة من هذه الحياة التي لم تكن الا بموت بارد ، كان الاب في تلك اللحظة يبحث عن زوجته و اولاده و هو يسبح لمسافات طويلة دون ستره نجاه تقييه من الغرق ، لم يكن من منذر الا ان ينضم لباقي الرجال و يشاركهم النجاة في وسط البحر ، لم يتحمل الجميع هذه الظروف منهم من مات بردا بعد بضع ساعات على الغرق و منهم من اصابه الوسواس القهري ، والقسم الآخر بدأ يستسلم ويخلع سترته مضحيا بحياته من أجل الأسماك الجائعة بعد بضع ساعات أخرى ، حتى شروق الشمس كانت ستر النجاة شاهدة على الموت و النهاية المؤلمة ، من الثلاثمئة فرد لم يبق الا ثلاثة رجال منهم منذر ، تم إنقاذهم بعد يوم من الحادثة من قبل خفر السواحل الايطالية ، حيث تم نقلهم إلى المستشفى .

\*\*\*\*\* **اشتقت إليك** \*\*\*\*\*

"انتظرتك كثيرا فلم تأتي ، نظرت في الأفق أفتش عنك لأشرك للمرة الأخيرة ،لأشكر تضحيتك لأجلنا ، ستبقى ذكرى ذلك اليوم الحزين خالدة ، تأكد أن البحر لن يحبك كما أحبتك أنا ، كل شيء أصبح أليما حتى هذه السطور بكت لفراقك ،الحياة من بعدك ليست حياة، أكتب إلى المجهول الذي تركتني وذهبت إليه ،أريد أن أقول لك ذكريات كثيرة كنا نتشاركها ،لكن الحروف تهرب مني ، والاشتياق يكبل يدي ، كنت أريد أن أطبع قبلة على رأسك قبل أن ترحل ، بوركت روحك الطاهرة ، أتمنى من البحر الذي أختطفك مني أن يسمح لي برويتك للمرة الأخيرة ، استشعر بالثقة التي منحنتي أياها ، تأكد أنني بخير ، وأنا مازلت كما تريدني دائما أن أكون"

"انتظرتك كثيرا فلم تأتي ، نظرت في الأفق أفتش عنك لأشكرك للمرة الأخيرة ،لأشكر تضحيتك لأجلنا ، ستبقى ذكرى ذلك اليوم الحزين خالدة ، تأكد أن البحر لن يحبك كما أحببتك أنا ، كل شيء أصبح أليما حتى هذه السطور بكت لفراقك ،الحياة من بعدك ليست حياة، أكتب إلى المجهول الذي تركتني وذهبت إليه ،أريد أن أقول لك ذكريات كثيرة كنا نتشاركها ،لكن الحروف تهرب مني ، والاشتياق يكبل يدي ، كنت أريد أن أطبع قبلة على رأسك قبل أن ترحل ، بوركت روحك الطاهرة ، أتمنى من البحر الذي أختطفك مني أن يسمح لي برؤيتك للمرة الأخيرة ، استشعر بالثقة التي منحنتي أيها ، تأكد أنني بخير ، وأنا مازلت كما تريدني دائما أن أكون"

سداود